مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الطَّلَاقِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد القرآن الزكية

سورة الطلاق

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الطلاق

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا
تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن
يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ
فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ
ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ
مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ
قَدۡرٗا ٣﴾

تعالج سورة الطلاق أحكام الطلاق، وما يترتب عليه من أحكام عدة المطلقة، وشأن الرضاع، والإنفاق، والسكن، والإشهاد على الطلاق. وأمر فيها سبحانه وتعالى بوجوب تقواه تبارك وتعالى، والتوكل عليه عَزَّ وجل. كما بينت يُسر شريعة أحكام الله تعالى. وقد انطلقت السورة الكريمة بنداء للنبي صلى الله عليه وسلم بخصوص الطلاق، فقال عَزَّ وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ يا أيها النبي إذا أردتم وعزمتم على الطلاق فاستوفوا أنتم والمؤمنون العدة. بأن يطلقها زوجها وهي طاهرة، في طهر لم يجامعها فيه. بما يفيد عدم المبادرة إلى ذلك لمجرد وجود الاختلاف، ليعطي بذلك مساحة من التريث. واحفظوا العدة، حتى تعلموا وقت الرجعة إن أردتم مراجعة الْمُطَلَّقة. وخافوا ربكم من أن تُخرجوهن من بيوتهن التي يسكن فيها قبل انقضاء العدة.

وقد شدد البيان الكريم بوجوب لزوم تلك الأحكام ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ فإن تلك الأحكام هي حدود الله ربكم فلا تتجاوزوها. ومن يتجاوزها فقد حقق الظلم على نفسه، فأسقطها وأوقعها في الظلم الذي يستوجب العقاب. ثم انتقل التوجيه الكريم إلى تهيئة الْمُخَاطَبين للأمل في انصلاح الأحوال ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ فلا تعلم أيها الرجل الذي طلق زوجته أن يُحدث اللهُ ربكم بعد هذا الطلاق أمراً لا تتوقعونه من الخير، بالرجوع إليهن. مما يفيد عناية الله تعالى بشأن المطلقات، وذلك بتنظيم أمور الطلاق وفق إجراءات مُحاطة بالشيء العظيم من الاحترازات والتوقي، وفيه كذلك من الآداب والأخلاق واللطف ما يحفظ به الحقوق. وهذا من فيض كرم الله عَزَّ وجل.

وقد اتجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبعٌ له عليه الصلاة والسلام في أحكام الطلاق. وفي هذا التخصيص للنبي صلى الله عليه وسلم ما يبين التعظيم لشأن ومنزلة النبي عليه الصلاة والسلام، وأنه هو المبلغ لأحكام الله عَزَّ وجل. كما فيه بيان لشأن الطلاق وأحكامه، وتعظيم أمره، بأن خاطب الله تعالى به رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد ابتدأ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بياء النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ لإفادة شد الانتباه، لِمَا نُودي له عليه الصلاة والسلام من التوجيه الكريم، الذي خاطب الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم بالتخصيص. وفي ذلك تنبيه للأمة، بأن تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم هو تنبيه للأمة، وشد انتباهها لهذا النداء العظيم من خلال مقام النبي عليه الصلاة والسلام، ليعلوا في نفوسهم مضمونه وأهميته، فهو نداء يحمل في دلالته لفت الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، وأخذه بعزم وأهمية وجدية.

ثم بعد النداء أورد اللهُ سبحانه وتعالى تسمية الْمُنَادى بمنزلة ودرجة النبوة الرفيعة العظيمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ تكريماً له عليه الصلاة والسلام بمكانته السامية، وتشريفاً لمقامه صلى الله عليه وسلم، وتنويهاً لغيره بفضله عليه الصلاة والسلام، وأنه نبي من ربكم أيها الناس. فإذا كان الله تعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا التكريم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ بدرجة ومقام النبوة فإن واجبكم كذلك أيها المؤمنون، بأن لا تخاطبوا رسولكم صلى الله عليه وسلم إلا بدرجة النبوة والرسالة. فيلزمكم زيادة التوقير والاحترام له عليه الصلاة والسلام، وسواء ما كان متعلقاً بالقلوب أو عند الخطاب والمناداة، أو غيره من مستلزمات التوقير. وليتعلم الناس كيف يخاطبون نبيهم ورسولهم صلى الله عليه وسلم، وهو الشأن الذي كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، ومَن

تَبِعَهم، فإنهم كانوا لا يقولون إلا: يا رسول الله، يا نبي الله. ثم تابعهم الذين من بعدهم، فيقولون عنه صلى الله عليه وسلم: كان رسول الله، وقال نبي الله صلى الله عليه وسلم.

وأفاد هذا الخطاب من الله تعالى أن مرتبة الرسالة والنبوة هما أعلى رتبة منحها الله تعالى لمن اصطفاهم، فلم يخاطب الله تعالى رسوله في كتابه القرآن العظيم بأي رُتبة من الرتب، إلا برتبة الرسالة والنبوة، وأما بغير هاتين الرتبتين فينوه عَزَّ وجل عنه باسمه صلى الله عليه وسلم، على سبيل الإخبار، لا النداء والخطاب، كما ورد في سورة آل عمران، وسورة الأحزاب، وسورة محمد، وسورة الفتح. لمناسبة المقام لذلك، ففي سورة آل عمران قوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ وفي سورة الأحزاب قوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ وفي سورة محمد قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ وفي سورة الفتح قوله تعالى ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ففي جميع ذلك كانت على سبيل الإخبار، وليس على سبيل النداء والخطاب المباشر له صلى الله عليه وسلم.

وبعد هذا النداء الكريم من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم يتناول التوجيه الكريم شأن إجراءات وأحكام الطلاق. فقال عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ إذا أردتم وعزمتم تطليق النساء. وقد ورد الخطاب من الله تعالى بصيغة الجمع ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ لإفادة التعظيم والتفخيم، وليشمل أيضاً المؤمنين من خلال صيغة الجمع. فمن دقة وبلاغة البيان أنه استوفى التعظيم والتفخيم لمقام النبي صلى الله عليه وسلم، واستوفى معه جميع المؤمنين. ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ إذا أردتم وعزمتم تطليق النساء ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ فاستوفوا العدة. بأن يطلقها زوجها وهي طاهرة، في طهر لم يجامعها فيه. بما يفيد عدم المبادرة بالطلاق حين وجود الاختلاف، أو دواعيه، ليعطي بذلك مساحة من التريث. وفي هذا حكمة وغاية عظيمة، ليأخذ الرجل مساحة من التفكير، وألا يجعل واقع الحال هو المعيار فقط للطلاق. فيندم على ما كان منه.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أن المقصود بالخطاب فيما هو قادم، لأن جملة ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ أفادت المستقبل. باعتبار أن دخول ﴿ إِذَا ﴾ على الفعل الماضي يفيد المستقبل. وبهذا قد استلزم التوجيه الكريم بفعل الأمر أن يكون الطلاق مستوفي العدة ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾

بأن يطلقها زوجها وهي طاهرة، في طهر لم يجامعها فيه. فذلك هو الطلاق للعدة، لأنها تعتد بذلك الطهر لعدتها. قال الطبري رحمه الله تعالى: إذا طلقتم نساءكم فطلقوهن لطهرهن الذي يحصينه من عدتهن، طاهراً من غير جماع، ولا تطلقهن بحيضهن الذي لا يعتدون به من قُرئهن[١] بما يفيد عدم المبادرة حين وجود الاختلاف، ليعطي بذلك مساحة من التريث.

ثم يأمر الله تعالى بإحصاء عدة المطلقة، فقال عَزَّ وجل ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ واحفظوا العدة، أي: زمن العدة، حتى تعلموا وقت الرجعة إن أردتم مراجعتهن. وكذلك ما يترتب ويرتبط بالعدة من النفقة والسكن. ثم يحث الله تعالى عباده على التقوى، التي هي أساس الضبط والانضباط. فقال تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ الزموا الخوف من الله ربكم تبارك وتعالى، واستحضروا مراقبته ومحاسبته لكم عَزَّ وجل في إنفاذ ما شرع لكم من أحكام الطلاق. بما يفيد: وجوب الالتزام بشرعه وأحكامه، ولا تعصوه فيما شرع وأمر.

وفي حث المؤمنين على التقوى ما يبين أثرها في التصرفات، غيباً ومشهداً. لأن حقيقة التقوى تتطلب الامتثال لأمر الله تعالى ونهيه. فبذلك يحثهم سبحانه وتعالى على استيفاء الأحكام التي يتحقق بها العدل والوفاء، وعدم الجور في تعاملهم مع زوجاتهم المطلقات. ليخرجوا بأخلاق الإسلام وهديه، وليس بأخلاق الجاهلية والظلم لهن.

وهذا الإيعاز بلزوم التقوى، ما يبين عظيم شأنها، إذ أنها الضابط لسلوك المؤمن في كل أحواله، وتصرفاته. وهو الشأن والأمر الذي يجمع فيه بين الخوف من الله تعالى وبين رجاء رحمته. وهو الأمر الذي يَشعر فيه المؤمن بأن الله تعالى مُطَّلِعٌ عليه، وسيحاسبه على ما يكون منه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فإن التقوى أعظم القواعد لسلوك الاستقامة في الانضباط بأحكام الدين، وفي التعامل، وفي الأخذ والعطاء، وفي المفاوضات لأنها تستوعب جميع تصرفات المؤمن مع الغير.

ثم يبين سبحانه وتعالى حال المطلقة في النفقة والسكنى، فيأمر الأزواج بأن لا يخرجوا زوجاتهم المطلقات من بيوتهن، فقال تعالى ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ يجب عليكم أيها المؤمنون ألا تخرجوا المطلقة من بيتها. بل تبقى فيه أثناء عدتها. وقد ألحق الله تعالى هذا النهي بما سبق من التقوى. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: خافوا ربكم من أن تُخرجُوا المطلقة من بيتها التي تسكنه قبل انقضاء العدة. ومن قوة الحكم أن نسب الله سبحانه وتعالى البيوت للزوجات المطلقات على ما كان من

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٤/٢٣)

الأصل قبل الطلاق ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ مما يفيد وجوب تمكينهن من السكن، وعدم إخراجهن، وذلك على أصل السكن أنه لهن. كما أوجب عليهن عدم الخروج إلا بعد انقضاء العدة. فقال تعالى ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ ويجب على الْمُطَلَّقَة بأن لا تخرج من بيتها أثناء عدتها إلا لضرورة تستدعي ذلك. وبالتالي فإن خرجت أدركها ولحقها الإثم. ومن فوائد بقائها في مسكنها هو ليعطي الحكم بذلك مساحة من التريث، وعدم التعجل في المفارقة القطعية. مما يفيد عناية الله سبحانه وتعالى بشأن المطلقات، وتنظيم أمور الطلاق وفق إجراءات من الاحتراز والتوقي في شأن عظيم، وفيه كذلك من الآداب والأخلاق واللطف ما يحفظ به الحقوق. وهذا من فيض كرم الله عَزَّ وجل بأحكامه المليئة بالعدل والرحمة.

ثم استثنى سبحانه وتعالى الحالة التي تُخرَج بها المطلقة من مسكنها. فقال تعالى ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ وقد استوعب الاستثناء الحالات المتعددة التي تشملها دلالة الفاحشة. فقد ورد في دلالتها أربعة أقوال: أحدها: أن خروجهن قبل تمام العدة هو فاحشة ظاهرة. والثاني: أن الفاحشة هي الزنا. والثالثة: أن تبدوا على أهله. وهي البذاءة في اللسان. فيحل لهم إخراجها. والرابع: أنها إصابة حد، فتخرج لإقامة الحد عليها[1] قال الواحدي رحمه الله تعالى: أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا الزنا[2] فهو استيفاء لجميع موجبات إخراج المطلقة من مسكنها حال وقوع ما يبرر وجوب إخراجها. وفي هذا بيان لعظيم القدرة البيانية في القرآن على أن تستوعب الحالات الأربع بكلمة واحدة، وهي ﴿بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ واشترط الحكم أن تكون الفاحشة ثابتة بينة. فلا بد أن تكون ظاهرة، بدليل ثابت. فقد أعطت دلالة ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ أن تكون ظاهرة، ليمنع بها التكهنات، والظنون، والأقاويل والإشاعات الباطلة. وهذا من ضبط دقائق الأحكام في كتاب الله تعالى ضبطاً يؤكد بأنه كلام الله تعالى، المعجز في تراكيب ألفاظه، ومقاصده، وبلاغة بيانه، وضبطه، وتحوطه في الأحكام بما يحقق العدل، ويمنع الجور.

ثم يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من مخالفة أحكامه وشرائعه، فقال عَزَّ جل ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: وتلك المذكورات من الأحكام في شأن المطلقات، هي حدود الله ربكم سبحانه وتعالى، أي: محارمه التي يلزمكم أن لا تنتهكوها، وأن الواجب هو أن تنزجروا عن الوقوع فيها، ولا تتجاوزوها. وسميت حدود الله تعالى لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج منها ما هو فيها، ومنها سُميت الحدود في المعاصي، لأنها تمنع

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٣٩)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥/٢٤١)

أصحابها من العودة إلى أمثالها.[١] ويُستفاد من ذلك أهمية تعظيم حدود الله تعالى في الأنفس، وأهمية تربية النشأ على ذلك، حتى يعتادوا التعظيم لها. وأهمية انقياد النفس على الوقوف عند حدود الله تعالى، وعدم مجاوزتها.

ومن دقائق البيان أن عَظَّمَها اللهُ تعالى بعدة دلالات. فأولاً: بالإشارة إليها باسم الإشارة ﴿وَتِلْكَ﴾ لإفادة التعظيم لها، والتحذير من مخالفتها. أي: فإشارة لهذه الأوامر والنواهي. وثانياً: بتسميتها حدود. وثالثاً بأن نسبها له جَلَّ جلاله ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ لإفادة التعظيم، لأن الحدود هي الموانع والفواصل التي يجب الوقوف عندها. فهذه الأحكام حدوداً حدَّها اللهُ ربكم سبحانه وتعالى، فلا تخالفوها.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن حال من تجاوز حدود أحكامه، ولم يعمل بها كما فرضها عَزَّ وجل، فقال تعالى ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ فمن لا يلتزم بأحكام الله تعالى فإنه ظالم لنفسه، فقد أوقعها في الإثم الذي هو بينه وبين ربه سبحانه وتعالى. فاستحق واستوجب بها العقوبة. فيكون فاعل هذا الاعتداء على فرائض الله تعالى ظالم لنفسه، إذ وقع في ظُلْمين، ظُلْمُه لزوجته أولاً، وظلمه لنفسه ثانياً، فظلمه لزوجته أوقعه في ظلم نفسه، وذلك لما يقع عليه من الجزاء من الله تعالى. وهذا دليل على تحريم مجاوزة أحكام الله تعالى التي فرضها وبينها في شأن الطلاق وغيرها من الأحكام، لأن الله تعالى سَمَّى من اتصف بمجاوزة حدوده ظالم لنفسه. والظالم استوجب العقوبة ما لم يعفو الله تعالى عنه. ونسأل الله تعالى السلامة والتوفيق.

ثم يخبر وينوه سبحانه وتعالى بالاحتمالات الغيبية التي لا يدركها أصحاب الشأن في أمر الطلاق، سواء الزوج أو الزوجة. بما يحثهم على إقامة أحكامه تبارك وتعالى وفق ما حكم، فإن لربكم حكمة عظيمة فيما حدده من حدود وأحكام. فقال عَزَّ وجل ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ فلا تعلم أيها الرجل الذي طلق زوجته مِن أن يُحدث اللهُ ربكم بعد هذا الطلاق أمراً لا تتوقعونه. فإن من فوائد زمن الاعتداد هو إعطاء مهلة لحين زوال خواطر الغضب، ودواعي الطلاق، وللتفكير بروية، وتأمل عواقب الفراق، وحسبان ما قد يترتب عليه، فإن الله ربكم قد يُوقع في قلب الزوجين محبة التراجع في مدة العدة، فلا تتهاونوا في أحكام الله تعالى. مما يبين ويُظهر عظمة تدبير الله تعالى.

وقد ورد التنكير والإفراد لما قد يحدث ﴿أَمْرًا﴾ من قوله تعالى ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ ليفيد الشأن والأمر المحتمل، وكذلك الشيء غير المتوقع. وكذلك نفى الله تعالى العلم بالعاقبة عن الزوج، فقال تعالى ﴿لَا تَدْرِى﴾ لا تعلم، بما يفيد قصور علم المخلوق حتى في خاصة شأنه، مع عظيم

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٢٥)

علم الله تعالى وقدرته، وقوة تدبيره ورحمته. وورد الحث على التمهل، والالتزام بالعدة بصيغة الرجاء ﴿لَعَلَّ﴾ من قوله عَزَّ وجل ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ فهي تستحث وتستثير الأمل. وقد نسب سبحانه وتعالى التغيير له عَزَّ وجل ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ﴾ فالإحداث منسوب له جَلَّ جلاله، لعظيم قدرته. كما أفادت دلالة ﴿يُحْدِثُ﴾ التجديد في الدواعي والقرار، وتغيير نمط التفكر، والنظر، مما لم يكن في خاطر الزوج أو الزوجين معاً. مما يفيد عظمة قدرة الله تعالى، وأهمية الحلم، وعدم التسرع، وأهمية التأمل والتفكر. وكذلك فيه بيان لعظيم عناية الله تعالى بشأن المطلقات، وتنظيم أمور الطلاق وفق إجراءات فيها من الاحتراز والتوقي الشيء العظيم، وفيه كذلك من الآداب والأخلاق واللطف ما يحفظ به الحقوق. وهذا من فيض كرم الله عَزَّ وجل على المؤمنين في جانب حفظ أركان الأسرة.

ثم بعد إصدار الأحكام من الله تعالى العزيز الحكيم التي تُوجب على الزوج الالتزام بها. ينتقل التوجيه الكريم إلى الزمن الذي تنقضي فيه عدة المطلقة. فقال عَزَّ وجل ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ فإذا قارين المطلقات انقضاء عدتهن، وهو معنى قوله تعالى ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فإذا حان وقت انتهاء أجل العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فأمسكوهن بالمراجعة لهن بمعروف، وهي النية والعزيمة الخالية من الإضرار بهن، أي: ليس إرجاعهن هو بقصد الإضرار بهن. كتطويل عدتها، أو لأي أمر آخر يلحق بها الضرر. فيجب أن يكون الإرجاع بهدف ونية إقامة العلاقة الزوجية وفق الحقوق والواجبات، وهو الإمساك بمعروف ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أو تركهن بمعروف، الذي هو مفارقتها بدون إلحاق أي ضرر بها، وهو التسريح لها بمعروف. وليس بالتعنيف والإضرار في كلا الحالتين. والمعروف شامل لجميع خصال الخير الواجبة والمستحبة، وزيادة الفضل عما يجب. ففي حالة التسريح يكون بمعروف. وفي حالة الإرجاع يكون بمعروف، فلا يكون الإرجاع متضمناً لنوايا سيئة. فلا يكون الهدف هو إلحاق الضرر بها. وهذا أمر من الله تعالى يقتضي الوجوب، وفي عدم العمل به ارتكاب أمر محرم. فلا يراجعها بنية الاعتداء والإيذاء، كإطالة الْعُدّة بمراجعتها مثلاً، أو بأي قصد سيء آخر.

والمتأمل في مخاطبة الآيات الكريمة في هذا المقام يجد أنها مخاطبة للزوج، باعتبار ما يملكه من القوامة، وتَحَمّل المسؤولية، ولكون النية خفية لا يعرفها أحدٌ غيره. سواء في إمساكه، أو تسريحه، والله تعالى قبل ذلك

مُطَّلِعٌ على نيته، فكان الخطاب والتحذير متوجهاً له، وكذلك كانت العقوبة موجهة له. فعالج تبارك تعالى هذا الأمر من خلال مخاطبة مَنْ أُوكِلَ له حق القوامة. ولو تأملها المرء لاستحى ممن خاطبه وعَلِمَ نيته، وسخر له هذه الزوجة سكناً له. فلا يجب عليه تجاه هذه النعمة وهذه المنزلة إلا الامتثال لمن أكرمه وهو الله سبحانه وتعالى. وكذلك من الفوائد الإيجاز البلاغي في جملتين: الأولى ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ والثانية ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ فهما جملتان متضادتان: إمساك أو تسريح، لكن اجتمعتا على فضيلة المعروف، وجمعتا معروفاً واحداً، وهو الإحسان في كلا الوجهين، من الإمساك أو التسريح. كما أن دلالة ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ جمعت جميع خصال الخير، الواجبة والمستحبة، وزيادة الفضل عما يجب.

ثم يقرر سبحانه وتعالى لعباده أحكام إجراءات الطلاق أو المراجعة، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ فأشهدوا على الطلاق أو المراجعة رجلين. وقد اشترط سبحانه وتعالى وصفاً دقيقاً للشهود. بأنهم ﴿ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ فالشرط الأول: أنهم من ذوي العدل، التي هي الاستقامة ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ ﴾ أي: رجلين مسلمين عدلين وذلك قطعاً وحسماً للتنازع والخصومة. وفيه الاحتراز ممن لا تأمن شهادته، إما لنسيانه، أو لخيانته وكذبه، وعدم مصداقيته. فالرجل العدل هو: من عُرِفَ بأداء فرائض الله تعالى، وصدقه، ورجاحة عقله، وأمانته. والشرط الثاني: أن يكون ﴿ مِّنكُمْ ﴾ أي: من أهل الزوج والزوجة، أي: منكم، وليس غريباً عنكم. احترازاً من مفارقته لهم، لأن الغريب، قد يترك الديار ويخرج، فلا يجدونه عند الحاجة إليه. وأما عندما يكون من أهل الزوجين فإنه يسهل الالتقاء به عند الحاجة. وفي هذا ما يدل على دقة الوصف في الشرط. والاحتراز الدقيق مما قد يفوت على الإنسان. مما يتبين من هذه الدقة المتناهية عظمة كلام الله تعالى، وأن سياق القرآن معجز في أحكامه، كما هو معجز في نظم بيانه. مما يعلم المؤمنين كيف يحررون ويضبطون أنظمتهم، وأهمية معالجة النصوص، وأن تكون مستوفية للضبط بالاحتراز من كل احتمال قد يرد. وسد باب الذرائع المخلة بالحقوق والاتفاقيات.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى أهمية الشهادة ووجوبها بقوله تبارك وتعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ أي: أدوا الشهادة بالعدل والصدق، بأن تجعلوها خالصة لله تعالى، لينتفي منها كل مقصد خارج عن الإخلاص لله عَزَّ وجل. لأن من أقام الشهادة لله تعالى، أخلص في بيانها بالصدق، ولا تأخذه في ذلك لومة لائم. ولا مجاملة ولا محاباة لأحد. ففي تقيدها بأن تكون الشهادة لله تعالى احترازاً من النوايا الباطلة التي تميل عن العدل والصدق، فيدخلها الحيف والشطط. مما يدل على وجوب الصدق في الشهادة، وإقامتها كما هي. وهذا من دقائق التوجيه، والاحتراز في حفظ الحقوق، وعدم الظلم والجور فيها.

ثم يُوجب الله تعالى على عباده المؤمنين الالتزام بأحكامه التي فرضها عليهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فجميع ما بيناه لكم من الأحكام إنما يأتمرُ به من تحقق فيهم الإيمان بالله تعالى، والإيمان باليوم الآخر الذي فيه الحساب والعقاب. بما يفيد أن من خَلَى قَلبُهُ من ذلك فإنه لا يتعظ بما وعظ الله تعالى به. بما يدل ويبين أن من حقائق الإيمان هو إقامة أحكام الله تعالى. فإن إقامتها على أصلها هو من دلائل الإيمان. وقد ربط الله تعالى الاتعاظ بالإيمان به عَزَّ وجل. فإن الذي يخافه ويهابه هو المؤمن بالله ربه سبحانه وتعالى وبالإيمان باليوم الآخر، لأنه يعلم أن في اليوم الآخر الحساب والجزاء. مما يبين أهمية الإيمان في ضبط السلوك والأفكار والنوايا. فإنه يجعل المؤمن يسير وفق أحكام الله تعالى وشريعته الغراء.

وهذا الخطاب والبيان هو موعظة من الله تعالى للرجال والنساء، ولأولياء أمور النساء، مما يُوجب الالتزام به. وقد أشار جَلَّ جلاله إلى جميع ما سبق من الأحكام والأوامر والمواعظ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ لإفادة التنبيه مع التعظيم، والوجوب. فإنكم مقصودون بذلك الوعظ ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ والوعظ هو النصح بلزوم الحق. وقد جعل الالتزام بوعظه سبحانه وتعالى دليل الإيمان ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فالإيمان به يوجب الطاعة، وتخصيص اليوم الآخر، لما فيه من المآل، المتضمن للحساب والجزاء. فكانت الموعظة ببيان الأحكام، ومنهج التراجع الْمُعَزَّز بالتذكير بالإيمان والمال، بما يفيد ويبين أن منهجية الإصلاح والتربية والتعليم والدعوة، يجب ألا تتوقف على البيان المعرفي فقط، دون عامل التحفيز الإيماني، الذي يدفع ويستثير المتعلم والموعوظ نحو التطبيق العملي، بحسب ما يقتضي النص التعليمي والبياني.

ثم يُحفز ويشجع سبحانه وتعالى على الالتزام بأحكامه ووعظه بمكافأته جَلَّ شأنه لمن يلتزم بمخافة ربه عَزَّ في علاه. فقال سبحانه وتعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ فإن مَن يمتثل بتقوى الله تعالى، ويلتزم بالخوف من الله ربه تبارك وتعالى، ويستحضر مراقبته ومحاسبته له عَزَّ وجل ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ أي: مسلكاً ونجاة من المصائب التي تحدق به، ومن كل ضيق وضائقة. فيوفقه الله تعالى للخروج منها بسلام. وقد ورد البيان لها عاماً، لتشمل النجاة في الدنيا والآخرة، بتوفيق الله تعالى وتسديده للمتقين. وحقيقة التقوى تتطلب الامتثال لأمر الله تعالى ونهيه. فبذلك يحثهم سبحانه وتعالى على الوفاء، وعدم الجور في الشهادة وفي التعامل. ليمتثلوا بأخلاق الإسلام وهديه، وليس بأخلاق أهل البغي والفجور.

ثم بعد تعميم الإنعام على من التزم تقوى الله تعالى بأن يجعل له ربه سبحانه وتعالى مخرجا تزداد البشارات في تنوع متعدد. فيقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ فإن الله تعالى يسوق له الأرزاق من كل وجه وجهة لم تكن في حسبانه وعلى باله وفي مخيلته، ولا في اعتقاده وتفكيره ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ بما يفيد المفاجأة في تحصيل أنوا ع الرزق، من حيث لم يأمل ولا يرجو ولا يتوقع، ولم يكن ذلك في حساباته وتخمينه. ومن ذلك التوفيق لِسُبُل الرزق، والبركة في الشيء، بما يغنيه به عن غيره، بل ويسد به حاجاته.

ثم يوضح ويبين سبحانه وتعالى قيمة ومنزلة التوكل عليه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ومن يفوض أمره إلى الله تعالى فهو كافيه فيما توكل على ربه سبحانه وتعالى فيه. فَيُوصِل ويُبَلِّغ سبحانه وتعالى عبده ما يريده من الخير، ويدفع عنه الشر وموانع الخير. ثم يخبر جَلَّ شأنه عن عظيم حكمته وتدبيره. فقال سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ فإن الله تعالى مُنفذ أمره على ما يريد، لأنه على كل شيء قدير، فلا يعجزه شيء أبداً. ولا يحول دون قضائه ومراده عَزَّ وجل شيءٌ أبداً، وذلك لكمال قدرته وسلطانه وملكه وقضائه وقهره، وإحسانه ورحمته جَلَّ جلاله.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ أنه سبحانه وتعالى قد جعل بقدرته وتدبيره لكل شيء مقداراً مُقَدَّرَاً، من الكثرة والقلة، وكذلك أجلاً ووقتاً وزمناً محدداً، وسواء من الشدة أو من الرخاء، فهناك تقدير محدد يفضي وينتهي إليه. مما يغرس في المؤمن الطمأنينة والصبر، والالتجاء إلى ربه سبحانه وتعالى بالدعاء والتوكل عليه، مع لزوم التقوى، والمحافظة عليها، فإن التقوى والتوكل أساس الفلاح والطمأنينة. وكذلك هي أساس لجميع أنواع الخير ودفع الشر. وقد ورد هذا التقدير مطلقاً ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ ليشمل كل شيء. حتى الأحكام، والتي منها أحكام الطلاق، والعدة، فإنها لها حداً وأجلاً مقدراً تنتهي إليه، وتؤول إليه. ليبين ويتبين أهمية الصبر، وتفويض الأمر إلى الله سبحانه وتعالى، والتوكل عليه عَزَّ وجل، والثقة به تبارك وتعالى. فإنه مالك الملك عَزَّ في علاه.

مما يُعَلِّم المؤمن بأن لكل شدة نهاية، ستنتهي بأجلها الذي قدره الله تعالى، وأن كل معروف سينتهي، ويبقى أثره. بل وفي قوله تعالى ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ علاجاً لكل شأن يتكدر منه المؤمن.

فإن أصابته مصيبة قال لنفسه ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ فإنها ستنتهي في وقتها المقدر لها. وإن أصابته نعمة، لم يبطر بها، قائلاً لنفسه ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ هناك أجل سنفارق فيه الدنيا، فأحسن فيما أعطاك الله تعالى. وإن رأى مكلوماً واساه بقوله تعالى ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ وإن رأى من أصابته نعمة وعظه بقوله تعالى ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ فإن لها زمن ثم تفارقها إلى الآخرة. فأحسن فيها كما أحسن الله تعالى إليك بها. فهي قاعدة تربي المؤمن على فهم الحقائق على وجهها الصحيح، فتجعله في سعادة غامرة. مما يبين نعمة الإيمان، ونعمة الإسلام، فإنه منهج عظيم من رب العالمين. وقد سعد من أخذ به، وهلك من حاد عنه.

وقد أظهر التوجيه الكريم لعباده أساس السعادة في الدنيا والآخرة، بأنها قائمة على التقوى، وعلى التوكل عليه سبحانه وتعالى. حيث قال عَزَّ وجل عن التقوى ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ فإن من يتمثل بتقوى الله عَزَّ وجل، ويلتزم الخوف من ربه تبارك وتعالى، ويستحضر مراقبته ومحاسبته له عَزَّ وجل، فإنه ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ يجعل له مسلكاً ونجاة من كل ما يحدق به مما يخافه ويهابه، ويرهب منه، كالمصائب والضيق، وكيد الكائدين، وحسد الحاسدين، ومكر الماكرين. فإن الله تعالى يُوفق المتقين للخروج منها بسلام. وقد ورد البيان لها عاماً، لتشمل النجاة في الدنيا والآخرة، بتوفيق الله تعالى وتسديده للمتقين. وأما حقيقة التقوى، فإنها الامتثال لأمر الله تعالى ونهيه، خوفاً منه وطمعاً فيما عنده. فبذلك يحثهم سبحانه وتعالى على الوفاء، وعدم الجور في الطلاق والشهادة وفي التعامل. ليمتثلوا بأخلاق الإسلام وهديه، وليس بأخلاق أهل البغي والفجور.

والأمر والقاعدة الثانية الجالبة للسعادة هي التوكل على الله سبحانه وتعالى. فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ ومن يفوض أمره إلى الله تعالى فهو كافيه فيما توكل على الله تعالى فيه. مما يعلم المؤمن أن سعادته هي في إيمانه، التي من أقوى مظاهرها التوكل على الله سبحانه وتعالى، والتقوى، فإنهما أصل السعادة في الدنيا والآخرة. اللهم اجعلنا من المتقين المتوكلين عليك يا رب العالمين.

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ

وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾ ﴾

بعد معالجة البيان الكريم لشأن الطلاق بأدق الأحكام التي تحفظ الحقوق، وتعطي مساحة من الوقت للتفكير والتأمل. وما أمر الله تعالى به من التقوى، وأثر ذلك على المتقين، وعلى من توكل على ربه عَزَّ وجل في شؤونه. ينتقل البيان العظيم بعد ذلك إلى شأن المطلقات اللاتي انقطع عنهن دم الحيض. فقال تعالى ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾ فإن النساء اللائي انقطع عنهن دم الحيض لكبر سنهن. وشككتم في ذلك الحكم الذي يخصهن. فلم تدروا ما الحكم فيهن، فإن عدتهن ثلاثة أشهر، وكذلك الصغيرات اللاتي لم يحضن لصغر سنهن فإن عدتهن ثلاثة أشهر كذلك. وأما ذوات الحمل من النساء فعدتهن أن تضع حملها. وبهذا اكتملت حالات النساء.

فهناك ثلاث حالات للنساء في هذا الشأن، فالحالة الأولى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ ﴾ فالمطلقات اللاتي انقطع عنهن دم الحيض لكبر سنهن أو لغير ذلك، فحصل عندهن اليأس ﴿يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ ﴾ وهو انقطاع الرجاء والأمل من الحيض، فإن المعالجة ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ ﴾ أي: حال أن حصل الشك والارتياب، فإن العدة هي: ثلاثة شهور ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ ﴾ فكل شهر تقابله حيضة مما هي عليه الحائض.

والحالة الثانية: هن اللاتي على عكس الحالة الأولى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ ﴾ وهن اللاتي لم يحضن لصغر سنهن، فعدتهن ثلاثة أشهر، مثلهن. أي: مثل اللاتي انقطع عنهن الحيض. وهذه دقة في بيان الحالات التي هي عند النساء، بصرف النظر عن علة انقطاع الحيض، سواء لكبر سن، أو لصغر، أو لمرض، أو لغير ذلك من الدواعي والأسباب. مما يدلل على دقة الأحكام الربانية، واستيفائها لجميع الحالات، بما لا يدع مجالاً للشك من أن هذه الإحكام لا تكون إلا من العليم الخبير سبحانه وتعال. وبما يعلم المؤمن الدقة في تحرير وبناء

الأحكام، والدقة في تحليل الحالات المتضمنة للفوارق الدقيقة في حالاتها، وفي أي مجال من المجالات المتنوعة في الحياة. بما يمكنه من تحرر الأنظمة، وترتيبها ترتيباً يستوفي الحاجة والمطلوب.

والحالة الثالثة: المتعلقة بأولات الأحمال. فقال تعالى ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي: فإن عدة الحامل من النساء هي ولادتها ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فأجلها الذي تنتهي به عدة الطلاق هو وضعها لحملها، الذي هو في بطنها. وليس لهن في عدد الأشهر التزاماً ولا حداً، فلا عبرة لهن بالأشهر بتاتاً.

وزمن حالة من يأتيهن الحيض هي ثلاثة أطهار من حيضهن، فينتظرن هذه المدة، كما ورد في سورة البقرة ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ أي: ثلاث حيضات. ومن دقائق التوجيه الكريم أن الله تعالى لم يحدد الوصف بالعمر والسن، بل حدده بوصف الحالات، وذلك مراعاة لاختلاف الناس، فحدد حالة الكبيرة بصفة اليأس، الذي هو انقطاع الرجاء والأمل من الحيض. وكذلك حدد النوع الثاني: في الوصف بعدم الحيض، أي: للائي لم يحصل منهن الحيض لصغر سنهن. والحامل، عدتها بوضع حملها. مما يدل على دقة البيان الذي بلغ الغاية في دقته، بما يُظهر أن القرآن العظيم الكريم كتاب معجز في تشريعه، وفي دقة الأحكام التي تضبط القرار والسلوك، ويتحقق به الحق من كل وجه. فالحمد والشكر لله تعالى على هذه النعمة العظيمة.

ثم يوجه سبحانه وتعالى عباده للتقوى بأسلوب الترغيب. فقال تعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ فإن من يخاف عقاب الله تعالى، راجياً طاعته وثوابه فإن الله تعالى ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ فإن الله عَزَّ وجل يهيئ له التيسير في أمره وشأنه، فتتحول بقدرته سبحانه وتعالى الأمور المتعسرة والصعبة المنال إلى اليسر، فيجعلها تبارك وتعالى سهلة يسيرة. وكذلك سبق في هذه السورة قوله تعالى عن التقوى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ فإن من يتمثل بتقوى الله تعالى، ويلتزم الخوف من الله تبارك وتعالى، ويستحضر مراقبته ومحاسبته له عَزَّ وجل فإنه ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ أي: يجعل له مسلكاً ونجاة من كل ما يحدق به مما يخافه ويرهب منه، من المصائب والضيق، وغيره. مما يبين منزلة التقوى، ومكانتها، وأن الله تعالى يحقق للمتقين التوفيق والتيسير، ويفتح لهم دروب الحق بسهولة ويسر. مما يبين أن عطاء الله تعالى للمتقين عام وشامل، إذ لم يُقيده بباب معين، بل ورد توفيق الله تعالى وتيسيره مطلقاً. ليشمل كل أمور الخير، من التوفيق بعموم فضل الله عَزَّ وجل الذي لا يُحصى ولا يُعَد.

وبعد التوجيه الكريم بوجوب العمل والانقياد والامتثال لتلك الأحكام يُعَظِّمُ اللهُ تعالى ما أمر به. فيقول عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ فتلك الأحكام المذكورة سابقاً التي حكم ربكم بها بين عباد، هي ﴿ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ ﴾ هي حكم الله ربكم الذي حكم به في دينه وبشرعه وتشريعه بين عباده. وقد عَظَّم تبارك وتعالى هذا التشريع بأن نوه عنه عَزَّ وجل باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ لإفادة التعظيم والإجلال لتلك الأحكام، وكذلك لنعمة ما فيها من القضاء النفيس الذي جعل فيه مساحة للتراجع من خلال مدة العدة التي قررتها تلك الأحكام والتشريعات، والتي راعت متغيرات الطبائع البشرية، وكذلك ما حث فيها من المعروف في التعامل، من خلال مكاسب التقوى والتوكل على الله جَلَّ شأنه.

كما أشار عَزَّ وجل إلى منزلة ورفعة تلك الأحكام من وجهين: أحدهما: هو أسندها وإضافتها له سبحانه وتعالى ﴿ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ والأمر الثاني: التنويه عنها بالإنزال ﴿ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ ﴾ أي: أنزله في كتابه على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ثم أخبر عَزَّ وجل بأنكم أنتم المقصودون بذلك أيها المؤمنون ﴿ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ ﴾ فأنتم المخصوصون به، وبتطبيقه وامتثاله. مما يفيد وجوب العمل والتقيد بهذا التشريع الذي أنزله ربكم إليكم في كتابه العظيم. فقد أكرمكم من عناء هذا الشأن.

ثم يتكرر الحث على التقوى من خلال بيان منزلتها وأثرها على المتقين. فقال تعالى ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ فمن يلتزم بإنفاذ ما أمر الله تعالى به، مخافة من عقوبته، ورجاء ما عنده من الثواب والخير، فإن الله تعالى ﴿ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾ يمحو ويزيل عنه ذنوبه التي أصابها، إكراماً من ربكم وجزاء لمن اتقى ربه عَزَّ في علاه. مما يفيد أن التقوى وسيلة لمحو الذنوب من الله تعالى. فهي أحد أسباب المغفرة من الله الرحمن الرحيم. وكذلك من إحسانه عَزَّ وجل على المتقين أنه قال عنهم ﴿ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ أي: فيجزل له الثواب. فإن من كرم الله تعالى أنه يجزل الأجر، بتعظيمه ليكون كبيراً ومضاعفاً أضعافاً كثيرة، فيدخله الجنة في الآخرة، ويُنعم عليه في الدنيا بسبب التقوى. مما يبين فضل التقوى ومنزلتها. بما يحث العباد على أن يتقوا ربهم عَزَّ وجل.

وهذا هو التكرار الثالث للأمر بالتقوى، حيث سبق أن تكررت مرتين في هذه السورة، وهو قوله تعالى عن التقوى ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾ فإن من يتمثل بتقوى الله تعالى، ويلتزم الخوف من

الله تبارك وتعالى، ويستحضر مراقبته ومحاسبته له عَزَّ وجل فإنه ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ أي: يجعل له مسلكاً ونجاة من كل ما يحدق به مما يخافه ويرهب منه. وكذلك قوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ فإن من يخاف عقاب الله تعالى، راجياً طاعته وثوابه فإن الله تعالى ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ فإن الله عَزَّ وجل يهيئ له التيسير في أمره وشأنه، فتتحول بقدرته سبحانه وتعالى الأمور المتعسرة والصعبة المنال إلى اليسر، فيجعلها تبارك وتعالى سهلة يسيرة.

مما يبين منزلة التقوى، ومكانتها، وأن الله تعالى يحقق للمتقين التوفيق والتيسير، ويفتح لهم دروب الحق بسهولة ويسر. فإن عطاء الله تعالى للمتقين شامل، إذ لم يُقيد باب معين، بل ورد توفيق الله تعالى وتيسيره مطلقاً. ليشمل كل أمور الخير، من الأرزاق والتوفيق، وعموم فضل الله عَزَّ وجل.

ثم يزيد الله تعالى في تفاصيل التعامل مع المطلقة، حفظاً وعناية بها. فقال تعالى ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ أسكنوا المطلقات أيها الأزواج في مساكنهن أثناء عدتهن ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ أي: في البيوت التي تسكنونها، من غير تكليف على من طلق زوجته أن يسكنها في مكان آخر ليس هو له ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ أي: بحسب قدرتكم ووسعكم، مما تجدونه عندكم من السعة. بما يرفع المشقة والعناء عن الزوج الْمُطَلِّق. ومراعاة لاختلاف قدرات وأحوال الناس في السعة، من غير تكليفه بما لا يطيق. كما أن في هذا غاية العناية بالمرأة المطلقة، مع رحمة الزوج بأن لم يكلفه بغير ما كانت عليه من السكن التي تعيش فيه قبل الطلاق. مما يبين رحمة الله تعالى، وعدله، ومنعه للظلم والجور، وضبط الحقوق والمعروف بين الزوجين بأكمل التشريع وأعظمه.

ثم نهى تبارك وتعالى عن استغلال واستثمار سكناها من أجل إلحاق الضرر بها، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ﴾ ولا تُلحِقوا بهن أي نوع من الضرر، من أجل التضييق عليهن ﴿ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ﴾ فأظهر بالبيان سبحانه وتعالى من أن يكون هناك مقصداً للتعسف بهن من التضييق ونحوه. وأورد سبحانه وتعالى التضييق عاماً، ليستوعب التضييق في المسكن، وفي المعيشة، بل ويشمل جميع ما يمكن أن يكون فيه تضييق على أي وجه كان.

ثم تناول التشريع الكريم ما يخص المرأة الحامل، التي طلقها زوجها وهي حامل. فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ ﴾ فإن كُنَّ المطلقات أولات حمل ﴿ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ فتستمر النفقة على المطلقة حتى تضع حملها. إذ تكون بوضع حملها قد أكملت العدة، فخرجت منها، فانتهى الواجب على الزوج الْمُطَلِّق.

ثم تناول التشريع الحكيم حال إرضاع هذه المطلقة للرضيع الذي كانت حاملة به. فقال تعالى ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ فإن أرضعن نساؤكم البائنات منكم ما كانت تحمله من الأطفال ﴿ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي: ادفعوا لهن أجرة ما يقمن به من الرضاعة. ومن دقائق البيان، وقوة ضبط الشريعة لأحوال الناس أنه لم يحدد الأجرة سبحانه وتعالى. مراعاة لأحوال الناس، واختلاف الأزمان، فأعطى التشريع المساحة لمقدار الأجرة التي يستوفي بها الحق من غير إضرار على الزوج أو على المطلقة، أو على الطفل. وهذا من جلال شريعة الله تعالى في دقتها التي يتأكد بها الإعجاز التشريعي في أدق وأقوى استيفاء المطالب للحالات التي يعجز عنها البشر بهذه الدقة المتناهية في كمالها وجلالها.

ثم احترازاً من الاختلاف في تقدير الأجرة، قال سبحانه وتعالى ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي: تشاوروا فيما بينكم بما هو سائد ومعروف عندكم، مما لا ينكره أحد، سواء من حيث القلة أو الكثرة. فأرشد سبحانه وتعالى الْمُخَاطَبين إلى واقعهم الذي يعيشونه. لأنه هو الحق والعدل، وهو ما يتحقق به العدل ومنع الظلم. وتشتمل دلالة ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ على ما هو متعارف عليه بينكم من الكفاية التي لا ظلم ولا جور فيها على الطرفين. وكذلك تشتمل دلالتها على جميل وحُسن التعامل، فيكون من المطلقة ألا تُطالب وتُجحف بالمبالغة في الأجرة، ويكون من الزوج الْمُطَلِّق ألا يجحف ولا يحسِّر ويعسِّر عليها، بل يكرمها بما يستطيع. فلا ينسون ما كان بينهم من عشرة ومعروف. وهذا من عظيم البيان ودقته، إذ أوكلهم التشريع الرباني إلى المعروف. مما يفيد الإعجاز التشريعي الذي ارتقى إلى المرتبة التي قد تعاظم التنظيم فيه إلى أقصى ما يمكن أن يكون.

ثم احترازاً من المشاحة التي ربما قد تقع وتحصل بين الطرفين، فقد نقلهم التشريع الرباني إلى حلول أخرى. فقال تعالى ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ فإن اشتد الخلاف بينكم في مقدار الأجرة إلى درجة التعاسر الذي حال بينكم دون اتفاق ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ أي: يستأجر الْمُطَلِّق مرضعة أخرى غير أمه، فترضع الرضيع. بما يفيد ألا يُحَمِّل نفسه ما لا تطيق من الأجرة التي قد تجحف فيها أم الرضيع. وهناك مسائل فقهية كثيرة في باب الطلاق والإرضاع، قد تناولتها كتب الفقه، وبعض كتب التفسير.

ثم يتدرج التشريع الكريم بنقل الزوج المنفق إلى أن ينظر إلى سعته وقدرته، وأن يتعامل مع واقعه بحسب ذلك. فقال عَزَّ وجل ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ فعلى الزوج أن يُنفق بحسب ما وسَّع اللهُ تعالى عليه ﴿ لِيُنفِقْ ﴾ ليبذل في النفقة والأجرة ﴿ ذُو سَعَةٍ ﴾ صاحب الوسع الذي وسع الله تعالى عليه في الرزق ﴿ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ مما هو فيه من الوسع، فلا يُضيق في النفقة، وقد وسَّع اللهُ تعالى عليه في الرزق، فليتعامل وفق حاله، وليس وفق التحجير والتضييق. وبهذا قد أعاد الله تعالى الزوج إلى سعته، وما هو فيه من النعمة، فكما أنعم الله تعالى عليك فأنعم ولا تبخل. ففيه معالجة دقيقة في العناية والاستثمار لأحوال العباد.

ثم أخبر تبارك وتعالى بما يكون ممن ليس في سعة من الرزق. فقال تعالى ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ فمن كان رزقه مُقَدَّراً تقديراً محدوداً، ليس فيه سعة ﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ فلينفق بحسب ما أعطاه الله تعالى من الرزق. فأعاد المنفق إلى قدراته، وذلك معالجة للتفاوت الكائن بين الناس، ليستوفي التشريع حتى مَن قُدِّر عليه رزقه. فاستوعب واستوفى البيان التشريعي جميع مساحات الاختلاف والتباين في الرزق. فالمؤمن يعمل وهو مدرك أن الله تعالى مُطَّلِع عليه، وعلى قدراته وإمكاناته.

ثم يضع الله تعالى لعباده قاعدة عظيمة ونفيسة، فقال عَزَّ وجل ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾

فإن ربكم لا يكلف أحداً من عباده بما هو خارج عن قدراته، فلا يكلف نفساً ﴿ إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ إلا وفق ما أعطاها من الرزق سبحانه وتعالى. وكل أحد من العباد يعرف قدر سعته، الذي مَكَّنَهُ اللهُ تعالى منه، فإنه عَزَّ وجل مُطَّلِع عليه، فلا تخفى على الله تعالى خافية أبداً. فأوكلهم سبحانه وتعالى إلى سعتهم. وهذا من عدل الله تعالى وحكمته في معالجة التفاوت بين العباد. كما أن فيه توجيه للمرضع بأن تراعي حال مُطَلِّقِهَا، فإذا كان الله سبحانه وتعالى لم يكلفه إلا بما يستطيع، فإنه يجب عليها أن ترضى منه ما يستطيع، بأن لا تجحف وتطالب بما لا قدرة عليه به.

ثم يتجه البيان من الله عَزَّ وجل إلى إثارة الأمل والرجاء عند الْمُطَلِّق، بحيث لا ينظر لقلة ذات اليد، بل يجتهد في مجاوزتها على أمل أن يوسع اللهُ تعالى عليه بهذا الأداء من النفقة أو الأجرة. فقال تبارك وتعالى ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ فإن الله تعالى ﴿ سَيَجْعَلُ ﴾ وهذا وعد من الله تعالى بما يثير الأمل والرجاء في الله عَزَّ في علاه بأنه ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ أي: سيجعل الله تعالى بعد الضيق

والشدة السعة والغنى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا وعد منه تعالى. ووعده حق، لا يُخلفه[١] فإذا أخلص العبد لله تعالى في عطائه وسخائه فإن الله تعالى يعوضه خيراً. فيعده عَزَّ وجل بالخير والسعة، ونقله من القلة والضيق في العيش إلى بسط الرزق بتوسعته. مما يغرس في المؤمن التوكل على الله تعالى، وأن يتعامل مع ربه في ثقة، فإن الله تعالى على كل شيء قدير، ولا يعجزه شيء، فهو الغني المغني سبحانه وتعالى. اللهم وسع لنا في أرزاقنا، وابسط لنا الخير من فضلك وبفضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين، يا رب العالمين.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾

وبعد أن أخبر سبحانه وتعالى ببيانه العظيم عن الأحكام المتعلقة بالطلاق، ورَغَّبَ في الامتثال بها، وبلزوم التقوى، والتوكل عليه سبحانه وتعالى، وبيان عاقبة من اتقاه وتوكل عليه، وما سيفضي إليه من الثواب العظيم، والخير الجزيل في الدنيا والآخرة، ينتقل البيان والتوجيه الكريم إلى الإخبار عن عاقبة السوء لمن عصاه، فأجمل القول البياني في الوعظ والتحذير من خلال كشف مصير العديد من الأمم الظالمة التي أهلكها الله سبحانه وتعالى بسبب عنادها وعتيها لأمر ربها عَزَّ وجل. فقال جَلَّ شأنه ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا** ﴾ فكم من قرية من قرى المكذبين، المعاندين، لأمر الله تعالى ولِرُسُلِهِ حل بهم العذاب بسبب عنادهم وتماديهم في المعصية، فحاسبهم عَزَّ وجل على أعمالهم في الدنيا حساباً شديداً. وفي الآخرة عذاباً عظيماً منكراً، بخسارتهم خير الدنيا والآخرة. بما يفيد أن عليكم أيها المؤمنون أن تشكروا الله تعالى على نعمة هذا التشريع من الأحكام، وأن تمتثلوا لله ربكم، ولرسولكم محمد صلى الله عليه وسلم، وعليكم بالاتعاظ ممن كان قبلك. وكما رحل مَن كان قبلكم، فسترحلون مثلهم. فعليكم بالاتعاظ من أن الجميع راحل عن الدنيا كما مضى على مَن كان قبلكم. فاعتبروا وأطيعوا خيراً لكم وأحسن.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٠٩)

فاستهل سبحانه وتعالى التوجيه الكريم بدلالة كلمة ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ التي تفيد التكثير والتهويل، والتي تعطي دلالة الكثرة، وضخامة عدد القرى التي أهلكها اللهُ سبحانه وتعالى بسبب ظلمها ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ وهي تبين تعظيم كثرة العدد الذي تناهى في كثرته، فمنهم من ذكرهم الله تعالى كعاد وثمود وأصحاب الأيكة، ومنهم من لم يذكرهم عَزَّ وجل ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾ فما أكثر القرى التي بطرت بالعناد لأمر ربها سبحانه وتعالى ولِرُسُلِهِ عليهم الصلاة والسلام. فوصف حالهم بدلالة ﴿ عَتَتْ ﴾ التي تعنى قوة التجاوز في العناد والاستكبار والتطاول ﴿ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾ فحاسبناهم على أعمالهم في الدنيا حساباً شديداً بسبب عنادهم وتماديهم، بما يفيد أنه كان حساب استقصاء، لا عفو فيه أبداً، فلم يتجاوز لهم عن شيء من ذنوبهم، وذلك جزاء لعنادهم وعتوهم. فهو جزاء يكافئ تمردهم وعنادهم. وكذلك ﴿ وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ وعذبناهم عذاباً عظيماً منكراً، فحل بهم العذاب بسبب عنادهم وتماديهم في المعصية. بما يفيد التحذير من ترك أحكامه وشرعه، فيحل عليكم سخط ربكم عَزَّ وجل. وهذا التحذير هو من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين، بما يعينهم على حفظ إيمانهم، والاستمرار في طاعة ربهم، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يزداد البيان إيضاحاً بالمزيد مما حل بتلك القرى التي عتت وعاندت وتمردت على دين ربها سبحانه وتعالى، وعلى من جاءهم من المرسلين عليهم الصلاة والسلام. فقال تعالى ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ فنالت نتيجة سوء أمرها من الكفر والعناد. وكان مآل ونتيجة ما كانوا عليه من العناد والتمرد هو تحصيلهم الخسارة، بأن فات ربحهم لخير الدنيا والآخرة. بما يفيد أن هذا عقاب الله تعالى لكل من يتمرد على دينه. فاتعظوا أيها الناس بمن كان قبلكم، حتى لا يحل بكم سخط ربكم وعذابه.

وقد نوه تبارك وتعالى عما نالهم من العذاب بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَذَاقَتْ ﴾ الذي يمثل الإحساس الدقيق الذي تمثله الحواس. بما يفيد شدة العذاب. بالتذوق واستطعام العذاب لشدته المتناهية، وهو إشارة وبيان لأقوى الحواس التي هي حاسة الذوق. فقد باشروا الإحساس بالعذاب كما تباشرون تذوق الأشياء بحاسة الذوق. ﴿ فَذَاقَتْ ﴾ أي: فنال أهلها ﴿ وَبَالَ ﴾ أي: الجزاء السيء ﴿ أَمْرِهَا ﴾ الذي هو كفرهم وعنادهم. ثم وصف تبارك وتعالى النتيجة الكلية والإجمالية لعنادهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ فإن عاقبة الشيء هي نتيجته ومحصلته، فقد تحققت فيهم الخسارة الكاملة، بما يفيد نفي تحصيل أي شيء من الربح. فلم يربحوا في الدنيا، ولم يربحوا الجنة في الآخرة، لأن مصيرهم إلى النار.

مما يفيد أن عليكم أيها الأحياء بالاتعاظ بما كان للأمم الكافرة السابقة من سوء الحال والعذاب، قبل أن تكونوا مثلهم. وهذا الوعظ والإنذار هو من عظيم رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين لهم عاقبة الكفر، والاستكبار. وأن لا ينقادوا إلى أهوائهم، بل إن واجبهم هو الانقياد للحق، والتواضع له. بما يبين عاقبة الاستكبار، وأنه أساس البطر. وأن مآل أصحابه إلى العذاب الأليم. فنسأل الله تعالى حُسن الخاتمة، والعافية في الدنيا والآخرة.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما أعده للكفرة من العذاب الشديد، فقال جَلَّ شأنه ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ أعد الله تعالى لهؤلاء المعاندين لربهم عَزَّ وجل ولِرُسُلِهِ عليهم الصلاة والسلام عذاباً بالغاً في شدته وألمه. فساء الفعل فعلهم بما كان منهم من العناد، الذي أغضب وأسخط عليهم ربهم سبحانه وتعالى. ثم يوجه جَلَّ جلاله عباده المؤمنين إلى الاتعاظ بحال تلك الأمم الكافرة، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فعليكم بلزوم الخوف من ربكم، وابتغاء فضله، وأن لا تغركم الحياة الدنيا وزخرفها. فالتزموا بتقوى الله تعالى فيما تستقبلونه من أمركم، لِمَا اشتملت عليه التقوى من الخشية والخوف والرجاء، والعمل بطاعته عَزَّ وجل، واجتناب ما نهى عنه وزجر. قال طَلَقُ بن حبيب رحمه الله تعالى: التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجوا ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله[١] فهي رأس كل طاعة، ورأس كل امتثال ومواظبة على التزام طاعة الله تعالى. فالتقوى تمنع التعدي، وتضبط التزام الحدود، وضبط الفكر والسلوك، مما يفيد أن التقوى تحقق الاستقامة في كل شأن، لما فيها من الرغبة في ثواب الله تعالى وجزيل عطائه، والخوف من حصول التقصير، أو إصابة ما يُغضِب الله تعالى ولا يُرضيه. وقد ربط السياق التقوى بألوهيته سبحانه وتعالى، وباسمه الأعظم ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فاتقوا ربكم، فإن للفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾ هيبة ومخافة، خاصة وقد اقترن بلزوم التقوى، وتقرير ألوهيته، الذي يجب أن تعبدوه في جميع شؤنكم، وذلك بمراقبته، واتباع شرعه عَزَّ وجل.

وقد خص الله تعالى المؤمنين بأن يتقوه، وسماهم بأنهم أولي الألباب. فقال تعالى ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فخصهم بأسلوب المدح والثناء، إذ خصهم سبحانه وتعالى بأنهم أولي العقول السليمة التي تنتفع بما تسمع وترى ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فالتزموا تقوى الله ربكم يا أيها المؤمنون، الذين هم أهل العقول السليمة الصحيحة، التي تقبل الحق فتنتفع به، وأما المستكبرون المتعالون فهم الذين ليسوا من أولي الألباب. فلن ينتفعوا بالمواعظ والحجج والبراهين. مما يفيد أن الذين ينتفعون بالحق، هم الذين يقبلونه، وهم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٧٤)

أصحاب العقول الصحيحة، وأن من رفض الحق فليس بصاحب عقل لبيب، لأنه يرى الحق ويعرض عنه مطاوعة لشهواته، واستكباراً منه بنفسه على الحق. مما يفيد أهمية التواضع، وأنه القوة التي تدفع الإنسان لاتباع الحق.

وقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بصفتين متلازمتين: الصفة الأولى: التي هي: العقول الراجحة، المدركة للحق، وتأخذ به ﴿ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾. والصفة الثانية التي هي: الايمان ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهي ثمرة العقول الصحيحة، بما يفيد أن كل مؤمن فهو لبيب، لأنه اختار الحق، وانصرف عن الباطل، بما يدل على رجاحة عقله. كما يفيد أن كل من ترك الإيمان فليس هو بلبيب، لأنه عرف الحق وتركه.

واللبيب هو الذي تفوق في إدراك الحق مع الأخذ به. فبالإضافة إلى عقل الإدراك فهو يملك عقل الرشد.

فعقل الإدراك هو الذي عند كل أحد من الناس ما لم يكن مسلوباً بجنون أو صغر سن. أي: الذي هو عقل التكليف. فأضافت دلالة اللبيب عقل الرشد إلى عقل الإدراك، الذي يرى به الحق حقاً فيتبعه، ويرى به الباطل باطلاً فيجتنبه. وهذا غاية المدح الذي يستثيرهم به سبحانه وتعالى للزوم أحكامه، والعمل بطاعته عَزَّ وجل. اللهم اجعلنا من أولي الألباب.

ثم يذكر تبارك وتعالى عظيم امتنانه بأن أنزل القرآن العظيم، وانتفاء العذر بهذه الحجة القائمة التي فيها تفاصيل أحكام الله تعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴾ أي: قد أنزل الله تعالى إليكم ﴿ ذِكۡرٗا ﴾ الذي هو القرآن، كما قال تعالى في سورة الحجر ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ ﴾ وسمى الله تعالى القرآن بالذكر، لما في دلالة الذكر من المعاني والمقاصد، والمسائل والدلائل البينة الواضحة التي تضمنها القرآن الكريم، فتلاوته ذكر، وتأمله ذكر. وبه يتذكر الإنسان ما يجب عليه، ويعرف منه الحق ليتبعه، ويتذكر به الباطل ليجتنبه، ويتذكر به ما يزيد ويرفع من إيمانه، ويتذكر به الآخرة، ويتذكر به الجنة والنار، وفناء الحياة الدنيا وقِصَرِها، ويتذكر به ما يدفعه إلى الخير والبعد عن الشر، ويتذكر بمعانيه ومقاصده خير الدنيا والآخرة، ويتذكر بما فيه من القصص، وما فيه من الأحكام والواجبات، وما فيه من المواعظ وضرب الأمثال، وما فيه من الأجر والثواب، فيندفع المؤمن لتلاوته وتدبره، وغير ذلك مما لا يحصيه الإنسان من مواقع ومواضع التذكير.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى مزيد إنعامه بإرسال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقال عَزَّ وجل ﴿ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴾

وكذلك من فضل ربكم عليكم أن أرسل إليكم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ والتي من مهامه عليه الصلاة والسلام تلاوة القرآن على الناس ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ أي: يقرأ عليكم ما أنزل الله تعالى من القرآن العظيم. وقد وصف الله تبارك وتعالى آيات القرآن بأنها ﴿مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ أي: واضحات، وموضحات للأحكام، والواجبات، والمنهيات، والحلال والحرام، فهي مبينة وموضحة لشريعة الله تعالى. مما يفيد كمال القرآن فيما يحتاج إليه المسلم. قال الطبري رحمه الله تعالى: قد أنزل الله إليكم يا أولي الألباب ذكراً من الله لكم، يُذكركم به. وينبهكم على حظكم من الإيمان بالله، والعمل بطاعته، رسولاً يتلو عليكم آيات الله التي أنزلها مبينات لمن سمعها، وتدبرها، بأنها من عند الله تعالى[١] فلا غموض ولا حيرة فيه أبداً، فأثبت البيان الكريم ما ينفي به جميع الموانع.

ومن فوائد السياق البلاغية أن بدأت الآية الكريمة بالرسول ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ فحذف فعل الإرسال إيجازاً بلاغياً، وتقديره: وأرسل إليكم رسولاً. وهذا من باب التعظيم، وتأكيد الارتباط بين القرآن وبين الرسول صلى الله عليه وسلم. بل جعل الرسول بصيغة النكرة ﴿ رَّسُولًا ﴾ لإفادة التعظيم، بأنه ظاهر لا يحتاج إلى إيضاح ومزيد تعريف، وأنه ليس هناك رسول غيره، فيحتاج إلى مزيد توصيف. وأن مهمته عليه الصلاة والسلام أن يقرأ عليكم القرآن، مما يبين أن السنة النبوية موضحة ومفسرة للقرآن الكريم، وأنهما متعاضدتان في تحقيق مراد الله تعالى.

ثم أخبر سبحانه وتعالى بالغاية والهدف من ذلك، وهو ابتغاء مصلحتهم. فقال عَزَّ وجل ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ليخرجكم مما أنتم فيه من ظلمات الكفر إلى نور الطاعة والامتثال لربكم عَزَّ وجل. مما يبين أن الكفر ظلمات، لما فيه من المتاهات التي تعصف بالإنسان في كل اتجاه من اتجاهات الباطل. فلا شيء يضبط للإنسان تصرفاته وعقله إلا هذا الدين العظيم، فخذوه وتمسكوا به.

فإن من رحمته جَلَّ جلاله بكم هو إرادته أن يخرجكم من هذا الظلام الحالك ﴿إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ وهو نور الإسلام، الذي ينير لمن أخذ به طريق الهدى، الذي يوصله إلى الجنة. فهو النور الذي يبدد ظلام الكفر، ويدحره بقوة نوره، والذي يضبط حياة الإنسان، ويجعل لها هدفاً وغاية في الدنيا وفي الآخرة. فإنها نعمة من الله تعالى الرحمن

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٦/٢٣)

الرحيم. مما يبين أن الله تعالى بكم رؤوف رحيم. إذ تفضل عليكم بهذا الإكرام العظيم، إذ يدعوكم ويعظكم، وينذركم، ويبعث رسوله صلى الله عليه وسلم بالدلائل والحجج، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام.

وقد جمع قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ جمع بين ما يجب أن تحمله القلوب والسرائر من الإيمان، وبين الامتثال والانقياد بأعمال الدين. فجمعت بين أعمال البواطن وبين أعمال الجوارح. مما يبين قوة التكامل بين ما تحمله القلوب، وبين ما تصدقه الأعمال من الطاعة والامتثال بصالح الأعمال، والانتهاء عن المنكرات. فإن الذين اتصفوا بصفة الإسلام، فجمعوا بين الإيمان وعمل الصالحات، فصدقوا بجميع ما أُنزِل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن العظيم، وغيره من التشريع الذي شملته سنته عليه الصلاة والسلام، فإن لهم عند ربهم ثواباً عظيماً. فهي ثلاثة أمور: الأمور الأولى: الإيمان ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: المصدقون بالله تعالى وبكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبكافة ما جاء عن الله تعالى. فالإيمان هو الأساس والقاعدة الأولى، لما تضمنه من الإقرار بالله تعالى رباً، وبمحمد نبياً ورسولاً صلى الله عليه وسلم. وكذلك الإيمان بالملائكة والكتب والمرسلين واليوم الآخر، وبجميع مفردات الإيمان. ثم يتعاضد الإيمان مع الأمر والصفة الثانية: التي هي: التطبيق العملي لشريعة الله عَزَّ وجل ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فجمعوا مع الإيمان العمل بالصالحات ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ التي هي الطاعة لله تعالى. وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، في الدنيا وفي الآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بعاقبة الخير والسعادة لمن يؤمن بالله تعالى ويعمل بما أمر الله تعالى به. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ فإن من يؤمن بالله تعالى، ويجمع مع الإيمان الاتباع والالتزام بعمل الصالحات، التي هي شرائع الدين ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فإن من لزم طاعته سبحانه وتعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه يدخله الجنة. وقد وردت الجنة بصيغة الجمع ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ ﴾ فليست جنة واحدة، بل جنات متعددة، ثم وصفها سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي: تتدفق من خلالها الأنهار الكثيرة. حيث وردت الأنهار بصيغة الجمع، لإفادة الكثرة والتعدد والتنوع. فقد اتصفت تلك الجنات بكثرة الأنهار ودوام تدفقها من تحت قصورها. فيزداد بها المؤمن سعادة وبهجة وسروراً. والجنات

هي البساتين التي تجري من خلالها الأنهار، في جريان مستمر، لا ينقطع، ولا يضعف. فتجري من أسافلها، لتمر في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وبين أشجارها وقصورها، من غير انقطاع.

ثم يقول سبحانه وتعالى عن استمرار الحياة فيها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ فحياتهم في هذه الجنات هي حياة الخلود الدائم الأبدي ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي: الأبد الذي لا ينقطع. فدلالة ﴿خَٰلِدِينَ ﴾ تفيد الأبدية، ثم أكد سبحانه وتعالى ذلك الخلود بأسلوب المبالغة، بدلالة ﴿ أَبَدًا ﴾ التي تعني أنه خلود لا ينقطع، ولا ينتهي ولا يزول. اللهم نسألك الجنة لنا ولأهلينا وللمسلمين أجمعين يا رب العالمين.

ثم يخبر الله تعالى عن عظمة حظ مَن نال الجنة، بأنه ﴿ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴾ فقد أغدق الله تعالى عليه كمال الرزق بدخوله الجنة. وقد تم ذكر الرزق بصيغة التنكير ﴿ رِزۡقًا ﴾ لإفادة المبالغة في تعظيمه. حثاً للعباد على اغتنام تحصيله بالإيمان وعمل الصالحات، التي هي طاعة الله تعالى بما شرع.

ثم ختم الله تبارك وتعالى سورة الطلاق ببيان عظمته وجلاله، بدلالة عظيم ما خلق من السماوات السبع، والأرض السبع، وتنزيل أمره بينهما، لتصريف الكون بما يشاء جَلَّ جلاله. حتى يدرك العباد بأن الله تعالى ربهم على كل شيء قدير. وقد أحاط علمه بكل شيء. فقال عَزَّ وجل ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ إن الله ربكم خلق سبع سماوات، وكذلك خلق من الأرض مثل ما خلق من السماوات، أي: بعدد السماوات السبع. فجمع البيان بدلالة السماوات جميع المخاليق، في الملأ الأعلى، من الملائكة والكواكب والنجوم والأفلاك والشمس والقمر، وكل ما ارتفع وعلا من مخلوقاته سبحانه وتعالى. كما جمع بدلالة قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ ﴾ جميع السبع الأرضين، وما خُلِق عليها وفيها، من الإنس والجن والدواب، والحيوانات، وما حوته من بحار ومحيطات وأنهار، وما بداخلها من أنواع المخلوقات.

ثم ذكر تبارك وتعالى أن من عظيم سلطانه وقدرته على كل ما يريد أنَّ أمره ينزل بما يشاء من السماء إلى الأرض. فقال جَلَّ شأنه ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ ﴾ أي: بين السماء والأرض. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يتنزل أمر الله تعالى بين السماء السابعة والأرض السابعة[1] فذلك يشمل قضاء الله تبارك وتعالى،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٨١)

ووحيه بما يوحي. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه قضاء الله وقدره، قاله الأكثرون. وقال قتادة رحمه الله تعالى: في كل أرض من أرضه، وسماء من سمائه عَزَّ وجل خَلقٌ من خلقه، وأمرٌ من أمره، وقضاءٌ من قضائه تبارك وتعالى. وقيل: أنه الوحي. قاله مقاتل[١] رحمه الله تعالى. فشمل المعنى بذلك وحي الله تعالى، وأمره، وقضاؤه. فكلها تنزل كما قال تعالى ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ أي: بين السماء والأرض. بما يدل على عظيم قدرته عَزَّ وجل، وقوة سلطانه، وأنه لا يعجزه شيء، وأن كل شيء له وحده لا شريك له سبحانه وتعالى.

ثم يذكر تبارك وتعالى الهدف والغاية من هذا الإخبار للعباد. فقال عَزَّ وجل ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ فهناك هدفان وغايتان رئيستان: الأولى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ليتحقق لكم العلم بأن ربكم على كل ما يريد قدير. فلا يعجزه شيء. فيقرر سبحانه وتعالى لجميع العباد بأنه عَزَّ وجل لا يعجزه شيء، وأن كل شيء تحت قدرته وسلطانه وقهره، ويدخل في ذلك أرزاقهم، ونصرهم وتمكينهم في كل شأن من شؤونهم. فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، بما يفيد التطمين، والترغيب في طاعته، وتعظيم شأن ربهم. وزيادة إيمانهم. وكذلك التحذير من معصيته، فإن قدرته عَزَّ وجل تشمل كل شيء، فاطلبوا عونه ليعينكم وتمكينكم، وأن لا تيأسوا، واحذروا مخالفة ربكم سبحانه وتعالى.

فهو عَزَّ وجل لا غيره ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فقد حصر سبحانه وتعالى كمال القدرة له بنون التوكيد ﴿أَنَّ ﴾ المؤكدة لِمَا بعدها، وهو كمال القدرة الربانية. ثم لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ ﴾ الذي أفاد أنه المألوه، ذو الألوهية، الذي لا يُعبد سواه، الجامع لكل صفات الكمال والجلال والإجلال. فأفاد البيان مع ما بعده حصر وقصر كمال القدرة له وحده تبارك وتعالى. وأفادت دلالة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في قدرته على ما يشاء من غير استثناء، من الإنعام، والقهر، والغلبة، والنصرة، والخلق، والتسخير، وما يمنحه للمخلوق من القدرات، وغيرها مما يشاء سبحانه وتعالى، فليس لقدراته عَزَّ وجل حد محدود، بل هي مطلقة لا حدود لها.

وأما الغاية والهدف الثاني هو: لتعلموا عظمة إحاطة علم الله تعالى بكل شيء. فقال عَزَّ وجل ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ ولتعلموا أن لربكم كمال الإحاطة بكل شيء علماً وقدرة، فمثل إحاطة قدرته جَلَّ شأنه بكل شيء، فقد أحاط بعلمه سبحانه وتعالى كل شيء. فلا يغيب عن علمه شيء أبداً. فله كمال الإحاطة التي استوعبت كمال العلم، وكمال القدرة، من الإنشاء والتدبير والقهر والسلطان والتصرف والتدبير

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤٧/٨)

والتصريف. فكل شيء مخلوق لله تعالى، وهو المطلع والمتصرف فيه، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يغيب ولا يستتر عليه من خلقه شيء سبحانه وتعالى.

وقد استهل بيان الإحاطة بحرف التوكيد ﴿ وَأَنَّ ﴾ لتأكيد ما بعده من بيان. ثم تلاه لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾ الذي أظهر أنه المألوه، ذو الألوهية، الذي لا يُعبد سواه، وأنه الجامع لكل صفات الكمال والجلال والإجلال. ثم حرف التحقيق ﴿ قَدۡ ﴾ الذي أفاد التحقيق والتأكيد لما بعده من بيان ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ ﴾ والإحاطة تعطي معنى استيفاء التمكن ﴿ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ فاستوفى ربكم بكمال علمه كل شيء، من غير استثناء، ليشمل ما خفي على المخلوقين، وما ظهر لهم، وما لا يعلمون من خلقه، وما يكون بينهم من التخفي والتستر، بل وما تكنه صدورهم، مما لم يفصحوا عنه، وينطقوا به. فإن ربكم هو الذي أحاط بجميع مخلوقاته علماً وقدرة، بما يفيد كمال التصرف فيها بما يشاء سبحانه وتعالى. وقد جمعت جملت ﴿ بِكُلِّ شَيۡءٍ ﴾ الاستيعاب الكامل لجميع خلقه بلا استثناء، والنفي من أن يخرج عنه ومنها شيء عن إحاطته عَزَّ وجل. كما أفاد قوله تعالى ﴿ أَحَاطَ ﴾ كمال التطويق لما خلق عَزَّ وجل، والتي استوعبت كمال العلم مع كمال القدرة والسلطان والقهر. فكل شيء مخلوق لله تعالى، وهو المطلع والمتصرف فيه، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يغيب ولا يستتر عليه من خلقه شيء، فكل غائب على غيره من خلقه مكشوف ومعلوم وظاهر له سبحانه وتعالى، وكل شيء ممتنع على غيره من خلقه، لا يمتنع عليه سبحانه وتعالى، بل تحت قهره وسلطانه. فاستوفت الآية الكريمة كمال وتمام عظمة وجلال الوصف لله تعالى، بما هو أهله حقيقة لا مراء ولا شك فيه.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الطلاق. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.